

الجمهورية الفرنسية الرابعة

لم تنشأ بعد ولكنها في طريق الإنشاء ، فسيضع الجنرال دي جول بين يدي الجمعية التأسيسية في اليوم السادس من هذا الشهر سلطاته المؤقتة التي تلقاها من ظروف الهزيمة سنة ١٩٤٠ ثم من ظروف المقاومة الخارجية ، ثم من ظروف المقاومة الداخلية ، ثم من ظروف التحرر والانتصار بعد ذلك . سيتلقى في غد ذلك اليوم سلطات أخرى مؤقتة أيضاً ، ولكنها ثابتة مستقرة لا تصدر عن الظروف ولا عن المصادفات ، وإنما تصدر عن الشعب الذي أختار بيني مستقبلي بإرادة حازمة عازمة توشك أن تكون إجماعية . فقد اشترك في التصويت للاستفتاء وانتخاب الجمعية التأسيسية خمسة وثمانون في المئة من مجموع الناخبين .

ولم تعرف فرنسا في تاريخها الانتخابي ما عرفته هذه المرة من إقبال الشعب على التصويت ؛ فقد اشترك فيه النساء لأول مرة وبلغ عدد المصوتين عشرين مليوناً . وقد استفتى الشعب الفرنسي في الدستور الذي قامت عليه الجمهورية الثالثة فقرر العدول عنه إلى دستور جديد ، واستفتى في سلطان الجمعية التأسيسية أيكون مطلقاً لا حد له أم يكون مقيداً محدوداً ، فأثر تقييده والحد منه اجتناباً للمغامرات ، وإيثاراً للحزم والدقة في مواجهة الظروف العسيرة المعقدة التي تواجهها الإنسانية عامة ، ويواجهها الشعب الفرنسي خاصة في هذه الأوقات . فستكون الجمعية التأسيسية إذاً مكلفة وضع الدستور الجديد الذي ينشئ الجمهورية الرابعة مستمتعة بالسلطان التشريعي مقيدة في مراقبة السلطة التنفيذية موقوتة الأجل بسبعة أشهر ، فإذا أتمت وضع الدستور اسنفتى فيه الشعب ثم انتخب البرلمان الجديد .

وكل هذه الإجراءات أتمها الشعب الفرنسي في هدوء ودعة وأمل في المستقبل وثقة بالنفس . وإذا كان من الطبيعي أن يستنط شيء من نتائج

الاستفتاء والانتخاب فأول ما يمكن استنباطه من ذلك هو أن محن الحرب قد دفعت الديمقراطية الغربية إلى تطور عنيف واضح نحو الشمال .

وقد خضعت فرنسا لهذا التطور كما خضعت له بريطانيا العظمى من قبل . فالملوثات التي جعلت أمر الشعب البريطاني إلى العمال في الصيف هي التي جعلت أمر الشعب الفرنسي إلى هذه الديمقراطية الجديدة في الخريف . وتقول الديمقراطية الجديدة ، لأن هذه هي الكلمة التي تلائم نتائج الانتخابات الفرنسية الأخيرة ، وتمثل المزاج الفرنسي الجديد . فقد انتصر الشيوعيون في فرنسا انتصاراً عظيماً ولكنه بعيد كل البعد عن أن يمكنهم من الحكم لأن ممثلهم في الجمعية التأسيسية لا يبلغون ثلثها ومثل ذلك يقال بالنسبة إلى الاشتراكيين . وقد انهزمت الأحزاب القديمة الميامنة والمتوسطة انهزاما يوشك أن يكون ساحقاً ، وقام مقامها حزب جديد هو حزب الحركة الجمهورية الشعبية ، ليس محافظاً وليس اشتراكياً ، ولكنه شيء بين ذلك ، وهو أدنى إلى الاشتراكية منه إلى المحافظة أو هو اشتراكي تلطّف اشتراكيته زعته المسيحية الكاثوليكية . وإذا فالذين يمثلون الشعب الفرنسي في الجمعية التأسيسية يتألفون من أحزاب تذهب كلها إلى الشمال يقع الشيوعيون في أقصى الشمال والاشتراكيون في وسطه والجمهوريون الشعبيون في أوله . ومعنى هذا كله أن الشعب الفرنسي قد عدل عن المحافظة الميامنة عدولاً نهائياً ، ولكنه مازال يستأني ويتهمل في إقدامه على الشمال .

وليس من اليسير التنبؤ بمستقبل الحكم في فرنسا أثناء الأشهر السبعة المقبلة . فالمنطق القديم كان يقتضى أن يأتلف الاشتراكيون والشيوعيون فيكونوا الكثرة التي تمكنهم من الحكم . ولكن المنطق الجديد قد يقتضى أن يأتلف الاشتراكيون والجمهوريون الشعبيون فيقيموا حكماً ديمقراطياً شمالياً أدنى إلى الاعتدال . وعلى كل حال فركز الاشتراكيين خطير حقاً في تأليف الجمعية التأسيسية ؛ لأنه يستطيع أن يميل إلى الشمال فيرجح كفة التطرف أو إلى اليمين فيرجح كفة الاعتدال . ومن الناس من يقدر أن الجزائر دي جول سيحرص على تأليف حكومة من الأحزاب البرلمانية كلها تمثل الاتحاد الوطني في هذه الظروف التي يشهد فيها التعقيد . والمهم هو أن الشعب الفرنسي قد اتخذ خطواته الحازمة الحاسمة إلى هذا النوع الجديد من الديمقراطية الذي يطلق المحافظة إلى

غير رجعة ، ويجب الشيوعية ولكنه يخشاها ، ويتخذ الاشتراكية المعتدلة مركز اناة وانتقال قد يتم غداً أو بعد غد .
وليست الجمعية التأسيسية إلا أداة لوضع الدستور ؛ فستقبل فرنسا رهين بطبيعة هذا الدستور من جهة ، وبالانتخابات البرلمانية التي ستتم بعد وصعه من جهة أخرى .

وواضح جداً أن عصر الانتقال هذا سيكون بعيد الأثر في السياسة الداخلية والخارجية لفرنسا . فالاشتراكيون والجمهوريون الشمبيون يريدون محالفة بريطانيا العظمى وتكوين الكتلة الغربية ، ولهذا أثره البعيد في سياسة الاستعمار وفي علاقة الغرب الأوربي بالشرق العربي . والشيوعيون يميلون إلى تقوية الحلف الروسي ، ولهذا أثره البعيد في نفس هذه السياسة الاستعمارية وفي علاقة الشرق بالغرب . وهذه الأحزاب كلها مجمعة على وجوب الإصلاح الداخلي العميق الذي سيحوّل فرنسا عن « الرأسمالية » العتيقة إلى هذه الاشتراكية الجديدة .

فاذا لاحظنا أن الاشتراكية هي التي تدبر أمور بريطانيا العظمى الآن اتبيننا إلى هذه النتيجة البسيطة ، وهي أن الديمقراطية القديمة التي كانت تسود العالم قبل الحرب قد ماتت في أوروبا وقامت مقامها الاشتراكية . ولم يبق للديمقراطية القديمة إلا معقلان اثنان ، أحدهما يقاوم عن شعور وعلم وفقه بحقائق الأمور وهو الولايات المتحدة الأمريكية . والآخر لا يقاوم ولا يهاجم وإنما أخذ الديمقراطية القديمة عن أوروبا وهو يستمسك بها انتظارا للمستقبل وهو الشرق الأدنى . فأما بقية العالم فيدان للصراع بين الاشتراكية والشيوعية .
ولعل هذه هي أولى نتائج الحرب الثانية ؛ فالنتظر فليس من شك في أن لهذه الحرب نتائج أخرى لم يتكشف عنها الغيب بعد .

...